خيرُ البضاعة في هَدَفِ وَغَايةِ المداومة على الطاعة

2022-05-06

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْنَا دَوَامَ طَاعَتِهِ، وَأَمَرَنَا بِعِبَادَتِهِ، وَيَسَّرَ لَنَا سُبُلَ هِدَايَتِهِ، وَأَمَرَنَا بِالإسْتِبَاقِ إِلِى مَغْفِرَتِهِ، أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ حَمْدَ مَنْ عَرَفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَعَدَ عِبَادَهُ الأَبْرَارَ نَضْرَةً وَسُرُورًا، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا، القَائِلِ جَلَّ شَأْنُهُ في سورة الإنسان:((إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا)). وأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. خَيْرُ مَنْ عَرَفَ حَقَّ رَمَضَانَ، وَوَاصَلَ البِرَّ والخَيْرَ بَعْدَ شَهْرِ المَغْفِرَةِ والإِحْسَانِ،

هذا محمّدُنا للحقّ أرشَدَنا * ومِنْ بحار الرَّدَى والهُلْكِ أنقذنا
هذا الذي جاء بالحقّ الْمُبِينِ لنا * وأذهب الشِّرْك بالآيات والحُجَجِ
صلّوا على المصطفى ذي الْمَنْظَرِ البَهِجِ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمّد. بغية السالكين المنتسِبين إلى الله. وعلى آله ذوي السيادة والجاه. وصحابته الفائزين برضى الله. صلاة تجعلنا بها من المهتدين بهداه. المغترفين من بحر كرمه ونداه. الساعين في تحصيل طاعته ونيل رضاه. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنَّ الدُّنيَا مَهْمَا ازَّيَّنَتْ وَكَثُرَتْ خَيْرَاتُهَا. وَتَعَدَّدَتْ مَبَاهِجُهَا وَتَنَوَّعَتْ لَذَّاتُهَا، فَلا يَنْبَغِي أَنْ تَصْرِفَنا عَنْ تَدَبُّرِ الْحِكْمَةِ مِنْ خَلْقِنا، وَإِدْرَاكِ سِرِّ وُجُودِنا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ. قال تعالى في سورة الذاريات:((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)). إِنَّهَا الرِّسَالَةُ السَّامِيَةُ وَالهَدَفُ النَّبِيلُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى وَلا يَنْقَطِعَ مَا دَامَ فِينَا نَفَسٌ يَتَرَدَّدُ، وما دَامَتْ فِينَا حَيَاةٌ تَنْبِضُ، لا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ شَهْرٍ وَشَهْرٍ، وَلا بَيْنَ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الْعُمُرِ وَأُخْرَى، نَعَمْ، لا انْقِطَاعَ فِي العِبَادَةِ وَلا تَوَقُّفَ، ولا يُؤَجِّلُ المُؤمِنُ بِرَّهُ ولا يُسَوِّفُ، بَلْ يَظَلُّ لِلطَّاعَةِ مُلازِمًا، وبِكُلِّ مَا يُرْضِي رَبَّهُ قَائِمًا، حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ سَالِمًا غَانِمًا، يَقُولُ سُبْحَانَهُ في سورة الحجر:((وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)). فَحَيَاةُ المُؤمِنِ كُلُّهَا للهِ، وَأَيَّامُهُ

وَسَاعاتُهُ إِنَّمَا يَقْضِيهَا فِي رِضَا مَولاهُ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائلٍ في الأنعام:((قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)). أيّها المسلمون. إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ آثَارِ مُوَاصَلَةِ الطَّاعَةِ وَفَوَائِدِهَا الوُصُولَ إلى مَقَامِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ مَقَامٌ جَلِيلٌ شَرِيفٌ، إِلَيْهِ تَطمَحُ أَنْظَارُ العَابِدِينَ، وَتَرنُو أَبْصَارُهُمْ وَبَصائِرُهُمْ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ:((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ)). وَهَكَذَا فَإِنَّ مُوَاصَلَةَ الطَّاعَةِ تَسْمُو بِنَفْسِ العَابِدِ حتَّى تُدخِلَهُ مَدْخَلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في الجَنَّةِ، فَفي صحيح مسلم عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:((سَلْ، فَقُلْتُ: أَسَأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ، فَقَالَ: أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بكَثْرَةِ السُّجُودِ)). فَهَنِيئًا لِمَنْ نَالَ مَحَبَّةَ اللهِ، وَبُشْرَى لَهُ بِمَغْفِرَةٍ يَنَالُهَا مِنْ مَولاهُ. أيّها المسلمون. فَالطَّاعَةُ الدَّائِمَةُ تُضْفِي عَلَى نَفْسِ المُؤمِنِ الكَثِيرَ مِنَ الحَيَوِيَّةِ وَالنَّشَاطِ، فَلا يَشْعُرُ بِيَأْسٍ وَلا إِحْبَاطٍ، بَلْ تَكُونُ سَبَبًا لِدَفْعِ البَلاءِ فِي الشِّدَّةِ، فَقَدْ جَاءَ في الحديث الذي رواه الترمذي والحاكم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكُرَبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ))؛ وَذَلِكَ لأَنَّ إِكْثَارَ العَبْدِ الدُّعَاءَ فِي وَقْتِ الرَّخَاءِ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِي عُبُودِيَّتِهِ لِرَبِّهِ. وَالْتِجَائِهِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَشَتَّى أُمُورِهِ، وَأَنَّهُ يَذْكُرُهُ فِي السَّعَةِ وَالرَّخَاءِ كَمَا يَذْكُرُهُ فِي الشِّدَّةِ وَالبَلاءِ، وَأَمَّا الَّذِي يَغْفُلُ عَنْ مَولاهُ فِي حَالِ رَخَائِهِ. وَيَلْجَأُ إِلَيهِ وَقْتَ بَلائِهِ. فَهُوَ عَبْدُ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ. قال تعالى في سورة يونس:((هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)). أيّها المسلمون. وَإِذَا كَانَ شَهْرُ رَمَضَانَ قَدْ وَدَّعَنَا فَإِنَّ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ لا تُوَدَّعُ، فَمَنْ ذَاقَ حَلاوَةَ الصِّيَامِ وَاستَشْعَرَ ذَلِكَ المَعْنَى العَظِيمَ المَنْشُودَ مِنْ

وَرَاءِ تَشْرِيعِهِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى، فَالبَابُ مَفْتُوحٌ لِمُوَاصَلَةِ العَمَلِ، فَقَدْ سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صِيَامَ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ وَثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ:((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ))، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُ:((يَا أَبَا ذَرٍّ. إِذَا صُمْتَ ثَلاثَةً مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، فَصُمِ الثَّالِثَ عَشَرَ وَالرَّابِعَ عَشَرَ وَالخَامِسَ عَشَرَ))، وَمَنِ استَشْعَرَ حَلاوَةَ المُنَاجَاةِ مَعَ رَبِّ العَالَمِينَ فِي صَلاتِهِ وَسُجُودِهِ، وَأَبْصَرَ الأَثَرَ الجَمِيلَ فِي الدُّعَاءِ؛ فَلْيَعلَمْ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى يُنَادِيهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ. قال تعالى في سورة غافر:((وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ))، وَهُوَ سُبْحَانَهُ القَائِلُ في سورة البقرة:((وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)). وَمَنْ تَعَطَّرَ لِسَانُهُ بِتِلاوَةِ كَلامِ رَبِّهِ خِلالَ رَمَضَانَ. فَدُونَهُ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى، فَلْيَلْزَمْ قِرَاءَتَهُ وَمُدَارَسَتَهُ، وَلْيَكُنْ لَهُ وِرْدٌ يَوْمِيٌّ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ، وَهَلْ تَحَسَّسْتَ أَيُّهَا القَائِمُ فِي اللَّيْلِ تِلْكَ المَعَانِيَ المَطْوِيَّةَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ الَّتِي قَالَ اللهُ عَنْهَا كما في سورة الإسراء:((وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً)). وَفِي بَذْلِ المَالِ فِي البِرِّ لَذَّةٌ فِي العَطَاءِ، وَسَعَةٌ فِي الرِّزْقِ، وَوَعْدٌ مِنَ الكَرِيمِ سُبْحَانَهُ بِالخَلَفِ. أيّها المسلمون. إِنَّ سِرَّ الأَعْمَالِ فِي دَوَامِهَا، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي كَثْرَتِهَا، فَفِي الحديث الصحيح عَنْ السيّدة عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ))، وَفِي حَدِيثِ البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاستَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ))، وَالغَدْوَةُ السَّيْرُ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَالرَّوْحَةُ السَّيْرُ آخِرَهُ، وَالدُّلْجَةُ سَيْرُ اللَّيْلِ، وَالمَعنَى: استَعِينُوا عَلَى مُدَاوَمَةِ العِبَادَةِ بِإِيقَاعِهَا فِي الأَوقَاتِ التِي تَنْشَطُ فِيهَا النَّفْسُ، وَفِي الأَثَرِ:((إِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ، وَلا ظَهْرًا أَبْقَى)). وهذا مثلٌ يُضرَب لمن يُبالِغ في طلب الشيء، ويُفْرِط حتى ربما يُفَوِّته على نفسه. أيّها المسلمون. فَعَلَى المُسلِمِ إِذَا فَتَرَتْ هِمَّتُهُ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ الإعتِدَالِ وَالتَّوَسُّطِ لِيُحَافِظَ عَلَى رَأْسِ مَالِهِ، وَيُحْسِنَ الإنْطِلاقَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى

الطَّاعَةِ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، فَقد أخرج الإمام أحمد وابن حِبّان والطبراني عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ:((إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ))، وَالشِّرَّةُ النَّشَاطُ وَالقُوَّةُ، وَالفَتْرَةُ الفُتُورُ وَالتَّرَاجُعُ. إِنَّ الاستِقَامَةَ عَلَى العِبَادَةِ دَلِيلٌ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي الخَيْرِ، وَعُنْوَانُ قُوَّةِ الإِيْمَانِ وَاليَقِينِ، قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم كما في سورة هود:((فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)). بَلْ هِيَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّةِ الخَيْرِ وَالرَّغْبَةِ فِيهِ. رَوَى الإمام مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي عَمْرٍو وَقِيلَ: أَبِي عَمْرَةَ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ:((قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَك؛ قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاَللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ)). فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَأَيْقِنُوا أنَّ سِرَّ الأَعْمَالِ فِي دَوَامِهَا، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي كَثْرَتِهَا ثُمَّ انْقِطَاعِهَا، فَفي البخاري عَنْ أمّ المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ)). وَاعْمُرُوا أَيَّامَكُمْ وَشُهُورَكُمْ وَأَعْمَارَكُمْ كُلَّهَا بِمَا يُقَرِّبُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَاستَشْعِرُوا مَعَانِيَ العِبَادَاتِ فِي نُفُوسِكُمْ، وَأَثَرَهَا فِي حَيَاتِكُمْ، فَإِنَّ لِكُلٍّ مِنْهَا جَمَالاً وَسُرُورًا، وَضِيَاءً وَنُورًا. واجْعَلُوا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ خَيْرَ مَدْرَسَةٍ تَخَرَّجتُمْ مِنْهَا، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُضَيِّعُوا صِيَامَكُمْ بِارتكابِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ فِي شَهْرِ الصِّيَامِ اعْتَادَتْ لُزُومَ الطَّاعَةِ وَالْمُدَاوَمَةَ عَلَيْهَا، فَكُونُوا كَذَلِكَ فِي جَمِيْعِ شُهُورِكُمْ، اعْمُرُوهَا بِمَا يُقَرِّبُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ؛ يُحْسِنِ اللهُ أَحْوَالَكُمْ، وَيَخْتِمْ بِالصَّالِحَاتِ أَعْمَالَكُمْ. نسألُ اللهَ أن يجعلنا مِمَّن قَبِلَ عَمَلَهُمْ في رمضانَ. اللهمَّ تَقَبَّلْ مَا حَصَلَ من العملِ واغفِرْ لنَا الخطأَ والتقصيرَ والزللَ. اللهمَّ إنّنا نسألُكَ رحمةً من عندكَ تجْعَلُنَا فيهَا بعدَ هذا الشهرِ الكريمِ خيرًا مما كُنَّا قبلَهُ. اللهمّ تقبّل منّا إنّك أنت السميعُ العليمُ، وتُب علينا إنّك أنت التوّابُ الرحيمُ. وجُد علينا إنّك أنت الجواد الكريم. واهدنا وراجع بنا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم. كما نسأله سبحانه أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى دِينِهِ، وَأَلاَّ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يُعِيذَنَا مِنْ أَسْبَابِ حُبُوطِ الأَعْمَالِ، إِنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ أَمِتْنَا عَلَى أَحْسَنِ الأَعْمَالِ، وَابْعَثْنَا عَلَى خَيْرِ الْخِلاَلِ يا ذَا

الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ، اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِاِغْتِنَامِ الْأَوْقَاتِ، وَعِمَارَتِهَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَ الْخَطَايا وَالسَّيِّئَاتِ. اللهمّ آمين. بجاه النبي الأمين. سيّدنا ومولانا محمد. صلَّى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرا إلى يوم الدين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين. اهـ